



عصر النهضة Renaissance أو النهضة الإيطالية وصف يطلق على حركة إحياء العلوم والآداب والفنون القديمة التي امتازت بها إيطاليا منذ القرن الرابع عشر والدول الأخرى فيما بعد، وليس معنى هذا أنه لم يكن هناك دراسة للقديم في القرون الوسطى، وإنما أساء العلماء حينئذ فهم العالم القديم اليوناني والروماني. كما أساءوا معرفته بما نبذوه جانباً من مبادئ هذه الحضارة ومظاهرها، وخاصة ما كان منها في نظرهم يتعارض مع تعاليم رجال الدين وتقاليد الكنيسة، بل ويتعارض كذلك في نظرهم مع أصول الدين.

ولكن هذه الحركة تميزت بأن القائمين عليها من العلماء والأدباء والفنانين قد أولوا عنايتهم التامة، وبذلوا في سبيلها كل ما يملكون من جهد، فدرسوا كل ما هو قديم من آثار الأقدمين الإغريق والرومان من مؤلفات علمية وأدبية ومخلفات فنية فذة في عوالم النحت والرسم والنقش والمعمار فاستطاعوا في هذه الحركة الواسعة العملاقة أن يبعثوا التفكير القديم من مرقد، التفكير القديم في كل اتجاهاته المختلفة، غير مكثرين بتعاليم رجال الدين ولا تقاليد الكنيسة. كما أنهم أضفوا على القديم من شخصيتهم وأحاسيسهم ما جعل لهذه الحركة طابعها المميز، يضاف إلى ذلك طبيعة البيئات المختلفة التي عاشوا فيها. وكان من نتائج ذلك كله ظهور حضارة منظمة النظير، لها طابعها الخاص في كل من الدول المختلفة التي ظهرت فيها.

ووسط حماسة العلماء والفنانين العظيمة في إيطاليا نجدهم يحتقرون كل ما ظهر قبلهم من حضارات أو تقدم فني أو أدبي أثناء العصور الوسطى ويعتقدون أن الحضارة الحقيقية التي اختفت بسقوط

الإمبراطورية الرومانية إنما أحييت بفضل جهودهم، ومن ذلك أطلقوا عليها اسم «الرينسانس» Renaissance أي الإحياء.

على أن هذه التسمية تعسفية إلى حد بعيد فإن صفة الإحياء لا يجب أن تطلق على الحضارة، لأن هذه الأخيرة لم تمت في القرون السالفة وإنما يكفي أن نطلق على هذه الحركة حركة بعث القديم أو بمعنى أوسع حركة انبثاق الحضارة الحديثة، للنهضة وانتشارها في بقاع أوروبا المختلفة عوامل متعددة من أهمها

١ - الاتصال الحضاري بين غرب أوروبا ومراكز الحضارة الإسلامية:

المراكز هي:

أولاً: بلاد الشرق الأدنى التي وقع عليها عدوان الصليبيين باسم الصليب.

ثانياً: شبه جزيرة أيبيريا.

ثالثاً: جزيرة صقلية.

يطلق اسم العصور المظلمة في التاريخ الأوروبي على الشطر الأول من العصور الوسطى خلال الفترة الواقعة بين سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في أواخر القرن الخامس الميلادي وقيام «النهضة الوسيطة» في أواخر القرن الحادي عشر، إذ رانت على أوروبا خلال هذه القرون الستة سحابة كثيفة الإظلام من التخلف والجمود، توارت معالم الحضارة الرومانية تدريجياً من إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وإنكلترا وغيرها من البلاد التي كانت خاضعة للإمبراطورية الرومانية، واضمحلت المدن الزاهرة وأغلقت المدارس وانتشرت الجهالة. ولم يبق أثر للحضارة والنظام والتعليم في أوروبا الغربية إلا بصيص خافت ينبعث من المؤسسات الدينية الجديدة مثل الديرية والمدارس الأسقفية أو الكاتدرائية. وكانت البابوية تشرف على توجيه التعليم في هذه المدارس وتخطط السياسة التعليمية فيها بما يطبع الثقافة بطابع ديني محدد.

وقد ساعد على انتشار الجهل والانحطاط العلمي أن الجرمان الذين أقاموا لهم ممالك في غرب أوروبا على أنقاض الدولة الرومانية كانوا يظهرون نفوراً شديداً من التعليم، كما أن البابوات كانوا لا يشجعون سوى الدراسات الدينية المسيحية ويحاربون ما عداها من دراسات محاربة عنيفة لا هوادة فيها. وكان من بين هؤلاء البابوات البابا الذي أطلق عليه مؤرخو العصور الوسطى جريجوري العظيم

حدث هذا في الوقت الذي كان فيه المسلمون يمشون قدماً في إقامة بنيان حضاري شامخ، ويضربون أروع الأمثلة في حرية الفكر وتشجيع البحوث وسرعة التطور. وقد كان أثر الإسلام والمسلمين في التاريخ خلافاً مبدعاً لم يقف عند حد التغييرات السياسية التي أحدثوها في أوضاع العالم المعروف، وإنما كان هذا الأثر أشد ما يكون وضوحاً في الميدان الحضاري.

وقد أخذت الحضارة الإسلامية تزحف إلى أوروبا منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وسلكت في طريقها عدة معابر أهمها ثلاثة، هي شبه جزيرة أيبيريا أولاً، وجزيرة صقلية ثانياً، وبلاد الشرق الأدنى القديم وما ارتبط بها من حروب صليبية ثالثاً.

فلما أفاقت أوروبا الغربية في أواخر القرن الحادي عشر من سبات الفترة المظلمة وجدت نفسها أمام حضارة إسلامية عملاقة أسهمت بنصيب موفور في كل ميادين العلم والمعرفة. وكان أن هرع طلاب العلم من مختلف أرجاء أوروبا الغربية إلى مراكز الحضارة الإسلامية ينهلون من مواردها؛ يدرسون ويترجمون ويقتبسون الكثير من معالم هذه الحضارة. وقد ترتب على هذه الدراسة والترجمة والاقتباسات نتيجة هامة، هي قيام وثبة حضارية أزهرت في القرن الثاني عشر يطلق عليها اسم «النهضة الوسيطة»، وكانت هي في حد ذاتها ثمرة من ثمار الاتصال الحضاري بين غرب أوروبا ومراكز الحضارة الإسلامية. وقد أدت هذه النهضة الوسيطة إلى تمهيد طريق الرقي وتحرير العقل الأوروبي من القيود الثقيلة التي فرضتها عليه الهيئات والأجهزة المختلفة وأصبحت النفوس مهياً للقبول للانقلاب العظيم الذي حدث بعد قرن وبعض قرن، أي في بداية القرن الرابع عشر حوالي سنة ١٣٠٠، ونعني بهذا الانقلاب النهضة الأوروبية الحديثة .

إن الحضارة الأوروبية الحديثة تستمد أصولها من النهضة الأوروبية التي بزغت في إيطاليا منذ مطلع القرن الرابع عشر، وهذه ترجع جذورها إلى النهضة الوسيطة في القرن الثاني عشر والتي هي ثمرة من ثمار الاتصال الحضاري بين أوروبا الغربية وبين مراكز المدنية الإسلامية ومعنى ذلك أن الحضارة الأوروبية الحديثة قامت على أساس واضح من المدنية الإسلامية بجميع فروعها ومظاهرها (١).

وكانت أيبيريا حيث ساد حكم العرب ما يقرب من ثمانية قرون [من معركة تور أو بواتيه ٧٣٢م إلى طرد عرب بني الأحمر من غرناطة ١٤٩٢هـ] - مورداً فياضاً للعلم والمعرفة والفنون، ومقراً لدور العلم

والمعاهد والمدارس، وقد أصبحت جميعاً قبله لطلاب العلم من كل صوب ومكان فازدهرت فيها لطلاب الدراسات الطبية القديمة والعلوم الفلسفية والرياضيات بأنواعها، كما ارتقت دراسة الأدب والشعر.

وكانت صقلية المصدر الثالث للحضارة العربية، بدأ غزو العرب لها عام ٨٢٧م وفي عام ٨٧٨م تمت سيطرتهم عليها وظلت خاضعة لهم مدة ٢٦٣ عاماً عندما غزاها النورمان عام ١٠٩٠م، وقد استمرت الحضارة الإسلامية قائمة في عهد الحكم النورماندي.

وقد نقل الغربيون عن المسلمين كثيراً من العلوم ولاسيما الطب والعلوم الرياضية إلى جانب بعض الصناعات مثل صناعة الحرير والسكر والورق (٢).

٢ - الاطلاع على مؤلفات وكتابات الأقدمين من يونان ورومان دون قيود والعمل على تصحيحها ومقارنة بعضها ببعض الآخر، ثم الاجتهاد في إدخال تعديلات أو تعليقات هامة عليها ثم محاولة محاكاتها والاستفادة من طريقة البحث مع ظهور عنصر الابتكار والتجديد. وقد دفع هذا الاطلاع المهتمين بهذه الدراسات إلى الرغبة الشديدة في الوصول إلى مزيد من الحقيقة والمعرفة، كما حررهم تماماً من القيود والأغلال التي كانت تشل تفكيرهم أيام العصور الوسطى، وتبعدهم عن ميادين البحث والمعرفة.

٣ - استجابة عدد كبير من المفكرين لهذه الحركة وتكريسهم للجهد والمال في سبيل ازدهارها، فتسابقوا في البحث عن كل ما هو قديم ودراسته، وتقديمه للأذهان سهلاً مستصاغاً. وقد استطاعوا تحت تأثير آداب القدماء وفنونهم بعث التفكير القديم في كل نواحيه المختلفة؛ وأضافوا عليه ما تميز به كل منهم من مميزات خاصة في كل من الدول المختلفة؛ فنتجت عن ذلك حضارة منقطعة النظير، ليس لها طابعها الخاص في كل مكان ظهرت فيه. ويعرف هؤلاء المفكرون بجماعة الإنسانيين، الذين كرسوا حياتهم لدراسة الأدبيات القديمة، فاستطاعوا بمجهوداتهم أن يقربوا لمعاصريهم مؤلفات وأفكار كتاب العهد القديم. كان هؤلاء الإنسانيون كتاباً مجتهدين في تقليد الأساتذة القدامى في طريقتهم وأسلوب تفكيرهم، كما كانوا كذلك حدادين لكل ما تقع عليه أيديهم مما كتبه القدماء، واتصفوا بأنهم كانوا علماء يعملون على تصحيح كل ما يجدونه من منقول المخطوطات الأصلية، وأساتذة بدلوا دراسات جديدة مبنية على أساس العلوم القديمة، وما تعلموه من الاطلاع على حضارة المسلمين الشاملة (١).

٤ - قامت هذه الحركة على دراسة المخطوطات القديمة، وكانت الكاتدرائيات والنائس والأديرة تزخر بعدد وافر من هذه المخطوطات وكان تشتمل المخطوطات الإغريقية والمخطوطات اللاتينية. وقد نشط البحث أولاً عن المخطوطات اللاتينية في شبه الجزيرة الإيطالية وفي سويسرا والولايات الألمانية وغيرها من بقاع أوروبا، وقامت الأسرة الحاكمة في المدن الإيطالية بتمويل عمليات البحث عن المخطوطات وشراءها حتى أصبحت هذه الظاهرة بارزة مشتركة بين حكومات المدن الإيطالية انقلبت إلى منافسة حادة بينها. أما المخطوطات الإغريقية فقد اتجهت الأنظار بشأنها إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية. ونشأت تجارة واسعة نشيطة للمخطوطات، وكانت القسطنطينية قبل سقوطها في يد الأتراك العثمانيين مركز هذه التجارة. وكان يقصدها عملاء من حكومات المدن الإيطالية يقتنون المخطوطات الإغريقية، أو دارسون موفدون من قبل هذه الحكومات يدرسون اللغة الإغريقية في القسطنطينية، ويجمعون في أثناء دراستهم عدداً وافراً من المخطوطات، وعن طريق العملاء والدارسين معاً انتقلت مجموعات ضخمة من المخطوطات الإغريقية إلى مدن شبه الجزيرة .